سيسيل رودس (وهو الاستعماري البريطاني الذي قام باستعمار روديسيا وسميت باسمه بعد ذلك) ، فكتب اليه يطلب منه ان يصادق على مشروعه : « كيف حدث اذن ان اتجهت نحوك ، ما دام الامر خارج طريقك ؟ لانه أمر استعماري ، ولانه يقوم على فكرة تنمية تستغرق عشرين او ثلاثين سنة... لكنك انت يا سيد رودس سياسي خيالي، او خيالي عملي . وقد برهنت على هذا . ما اريده منك ليس ان تعطيني او تقرضني قبضة من الجنيهات ، بل ان تصدق على المخطط الصهيوني ، وان تعلن التصريح التالي امام عدد من الناس : أنا ، رودس قمت بفحص هذا المخطط ووجدته صحيحا وعمليا . انه مخطط مملوء بالحضارة ممتاز بالنسبة الى الشعب الذي يتوجه المخطط نحوه ، لا يعيق تقدم البشرية العام ، مفيد جدا لانجلترا ولبريطانيا العظمى »(٣).

من المهم اذن ان يكون المخطط الهرتسلي « مفيدا جدا لانجلترا » ، وان يقتنع بفائدته لانجلترا ، أحد أعمدة الاستعمار البريطاني ، وان يعلن ذلك أمام « عدد من الناس » ، وبذلك يحوز هرتسل من الدعم البريطاني ما حازه قبله رودس . هل نستطيع الاستنتاج اذن ان هرتسل كان يحلم بشيء يختلف عن الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا وروديسيا ؟ ان فكرة اقامة مجتمع متفوق ، يسكنه عنصر متفوق ، ويكون ذا مميزات فريدة في تنظيمه وقيمه ، هذه الفكرة لا نجد لها اثرا في التفكير الهرتسلي ، وعلى العكس من ذلك نجد فكرا محافظا : « قد يظن البعض انهم يستطيعون ان يقيموا دولة اشتراكية في المستقبل هناك ، ولكن لا أظن ذلك . قد نستطيع ان ننظم الامور بطريقة أفضل مما كانت عليه في المجتمع القديم ، ولكن على العموم ، ستبقى الامور على ما كانت عليه . اذا كنت أعتقد ان شيئا غير هذا سيكون ، فسوف أكون مثاليا أكثر من اللازم »(٤).

• أما شعور الاستعلاء والتفوق فانه لا يتجلى عند هرتسل الا عند حديثه عن « أهالي البلاد » ، وهو بهذا الشعور لا يختلف عن غيره من الاستعماريين الاوروبيين في نظرتهم الى « السكان المحليين » . ان هؤلاء السكان المحليين لا يمكن ان ينظر اليهم الا باعتبارهم « مشكلة » من مشاكل الطبيعة القاسية للبلاد ، في أسوأ الاحوال . ويمكن ، في الاحوال العادية استعمال هؤلاء السكان في التغلب على بعض الصعوبات التي تفرضها الطبيعة : « اذا رحلنا الى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما لم يتعود اليهود عليه مثل الافاعي الكبيرة وغيرها ، سأستخدم أهل البلاد — قبل ان أعطيهم أعمالا في البلدان المجاورة — ليقضوا على مثل هذه الحيوانات . جوائز كبيرة لمن يأتي بجلود الافاعي وبيضها ، الخ »(٥) ان حديث هرتسل عن العرب بهذه الصيغة ، لا يعبر عن رأي هرتسل الخاص بسكان فلسطين العرب ، اذ انه لم يكن يعرف عنهم شيئا في ذلك الحين ، ولكنه الرأي الاوروبي الاستعماري بالشعوب الافريقية ، وشعوب المستعمرات عامة .

النقطة الثانية التي يجب تأكيدها ، فيما يتعلق بجوهر الغطرسة الصهيونية ، هو ان هذه الغطرسة لا تستمد أصولها — كما هو شائع — من الدين اليهودي والاساطير التوراتية القائلة بأن الشعب اليهودي هو « الشعب المختار » ، وان كان هذا المفهوم قد استثمر الى أقصى مدى . ان التمييز الذي يتعرض له اليهود الشرقيون (السفاراديم) في اسرائيل ، ونظرة الاستعلاء التي ينظر بها اليهود الغربيون (الاشكنازيم) تجاه الشرقيين ، والخوف من ان تصبح اسرائيل دولة « شرق — أوسطية » والقلق الذي يبديه القادة الصهيونيون امام ظاهرة تكاثر العنصر الشرقي في الدولة ، وما يحمله هذا التكاثر (الذي يبلغ الان نسبة تزيد عن ٦٠ ٪ من مجموع سكان « الدولة » ، من احتمالات التشرق (Levantinization)، كل هذا يشير الى ان شعور الغطرسة والتعالي ليس شعورا يهوديا جماعيا ، وانما هو شعور فئة واحدة هي فئة اليهود الغربيين الذين